



طرق التفكير في حل المعضلات ليست واحدة، هذا أمر لا شك فيه، فمن المعضلات ما يمكن حلها بالاقتصر على تفكير الحالة الراهنة، ومن المعضلات مالا يمكن حلها إلا بالرجوع لأصل نشأتها والانطلاق في التفكير في معالجتها من هناك. يبدو لي أن المعضلة في سوريا ينشغل الجميع اليوم في علاجها بالنظر إلى حالتها الراهنة، وهي حالة غامضة في كثير من جوانبها، ومتداخلة ومعقدة في الجوانب الظاهرة منها، تتصارع فيها المفاهيم والمشاعر القومية والوطنية والطائفية والدينية، كما تتصارع فيها المصالح الإقليمية والدولية بشكل أصبح تفسيره الدقيق مستعصياً حتى على الأطراف المتصارعة، ابتداء بالفصالص الصغيرة في الداخل السوري وانتهاءً بالدولتين العظميين، فالجميع لا يستطيع أن يشرح بدقة ما الذي يريده وما الذي لا يريد، وكل من يزعم: أن فصيلاً ما أو دولة ما أو حزباً ما يعرفون اليوم ماذا يفعلون في سوريا وماذا يريدون فهو إما واهم وإما كاذب يعتمد إشعار الجماهير بوضوح أهدافه، وحقيقة الأمر: أن هناك إعصاراً يدور بشدة قاتلة داخل سوريا، وهو الذي يُقلب الجميع ويُوجهُهم كشأن الأعاصير حينما تُحل بساحة قوم، أو لنقل إن سوريا تتقلقل بالجميع كما تَتَّفَّقَ حَبَّاتُ الْبَنِ داخِلِ الْحَمَاسَةِ.

مصالحة بهذا الشكل لا يمكن إنهاوها فقط بالسعى لتفكيك الوضع الراهن كما هو حاصل الأن، ولذلك فشلت جميع المحاولات لصنع ذلك، بدءاً بالسابق للجسم العسكري الذي يُعد مстиحلاً، وحتى السيطرة الدولية على الوضع والتي أصبحت أشد استحالة في ظل تناقض الدولتين الأقوى عالمياً على الكلمة الفصل، ومروراً بمشاريع الحوار بين النظام ومن يفترض كونهم ممثلين للشعب، أو الحوارات ومحاولات التصالح بين الفصائل.

كل شيء من هذا فشل في إنهاء المأساة لأن الجميع ينظرون إلى المشهد أمامهم كيف هو؟ ومن ثم يحاولون تفريغ مَنْ على المسرح وإغلاق الستار، وهو مالم يحدث ولن يحدث في وضع هكذا أبداً.

إذاً بقيت الطريقة الأخرى من طرق التفكير في حل المعضلات، وهي الرجوع بالمأساة لأصل نشأتها والانطلاق في محاولة علاجها من هناك، وهو مالم يحدث حتى الأن وفق متابعي الخاصة، وعدم حدوثه ليس بسبب الجهل به، بل هم أكثر خلق الله معرفة بجدواه لكن كل طرف يعلم أن التفكير بهذه الطريقة سينهي الأزمة فعلاً لكن بصورة لا تضمن وجوده.

فالثورة السورية بدأت كسوهاها من الثورات الشعبية دون رأس، وكان بالإمكان أن تنجح وهي على هذه الصفة، لو لا أن النظام دخل في مواجهة مع الشعب، وكان الخياران المُتاحان: إما فشل الثورة في الوصول إلى هدفها النهائي وإما أن يتَّحد جميع الثوار في كل أنحاء سوريا في كيان واحد تحت قيادة واحدة.

و جاء إعلان تكوين الجيش الحر فرصة مناسبة لاحتواء الثوار في قيادة عسكرية واحدة، وكذلك جاء إعلان المجلسين الوطني والأعلى للثورة السورية كفرصة لوجود جناح سياسي متناغم مع الجناح العسكري.

لاسيما وأن أكبر دولتين في المنطقة - السعودية وتركيا - قد أعلنتا عن دعمهما للشعب السوري، حيث جاء في كلمة الملك عبدالله رحمة الله في ١٤٣٢/٩/٨هـ عدم رضى المملكة عما يقوم به النظام ووقفها أمام مسؤوليتها التاريخية.

ومن واقع خبرة السعودية في أفغانستان كانت ترى أن أعظم ما يؤدي إلى الانشقاق والتنازع وذهاب الريح هو فوضى الدعم، فكانت ترى أن الدعم يجب أن تتواءه الدول بتنسيق بينها، كما يجب أن يُقصَّر على الجيش الحر لكونه أول كيان عسكري مؤهل يُعلن عن نفسه، وأن الفصائل الأخرى ينبغي أن تلقى دعمها منه، لأن تعدد الجهات المدعومة وتعدد الداعمين يُعطي كُلَّ جهة عسكرية إستقلاليةً تامةً عن الآخرين، وبالطبع لن تقتصر هذه الاستقلالية على الناحية الإدارية والتخطيطية بل ستمتد إلى الاستقلال الفكري والعقائدي الأمر الذي سيجعل صراع الفصائل أمراً حتمياً، كما حصل في أفغانستان تماماً، حيث أدى اختلاف الجهات الداعمة والمدعومة إلى تعدد الرؤوس وتباطؤ الاتجاهات الأمر الذي أدى إلى تصارع المقاتلين فيما بينهم ومن ثمَّ انخذالهم جميعاً، وأصبح حصيلة قتالهم الطويل انتقال بلادهم من الاحتلال الروسي إلى الاحتلال الأمريكي الذي سُلِّم أفغانستان بِرُمْتِها لإيران .

ولهذا مَنَعَت السعودية جمع التبرعات من داخلها لدعم الفصائل السورية لكون الدولة ملتزمة بدعم الثورة بالطريقة التي نراها مناسبة.

وهذه الفكرة في إدارة الثورة حَقَّقت نجاحاً مَكِّنَ الثوار بفصائلهم المختلفة تحت مظلة الجيش الحر أن يحققوا مكاسب كبيرة قدرها بعض المتابعين بـ٧٠٪ من الأراضي السورية، إلا أن جهاتِ استخبارية عالمية وعربية وأفراداً خليجيين يملكون من الأحلام أكبر أضعاف المرات مما يملكون من الوعي والحكمة والعقل قاموا بإنشاء فصائل جديدة تعلن عن مشروعها المستقل عن الجيش الحر، بل قدَّموا إغراءات مادية لاجتذاب بعض الفصائل المنضوية تحت الجيش الحر، ومن هنا فقط بدأت قصة الاقتتال بين الثوار أنفسهم ومهزلة الصراع على المكاسب، وفكرة تحرير المحرر، أي: أن يقوم فصيل بالاستيلاء على المناطق التي تحت سيطرة من يفترض أنهم شركاؤه في الثورة، وفتاوي التكفير التي ظلت تَخْرُج من الفصائل المستقلة، ومبأً قتال المرتد أولى من قتال الكافر الأصلي، وأشياء كثيرة من صور النزاع التي أخرجت جوانب كبيرة من الثورة السورية من كونها جهاداً إلى كونها فتنة.

وحيث نريد للكارثة في سوريا أن تنتهي يجب أن نبحث عن السُّبُل التي تكفل عودة الكيان العسكري الواحد وتُلغى بموجب تشكيله جميع الفصائل لِتَكُونَ جيشاً سورياً واحداً ينحصر هدفه في أن تكون سوريا وطنًا تتحقق فيه مقاصد الشريعة الخمسة بضرورياتها وحاجياتها وتحسينياتها، حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، أما ما فوق ذلك من أهداف فيجب التسليم من الجميع أن التجارب أثبتت أن ما صرَّح منها أن يكون هدفاً فوقه لم يحن بعد، وأن الإصرار على المطالبة بها والاختلاف بين الثوار من أجلها ليس إلا خدمة لمن يسرهم بقاء المأساة في سوريا حتى يُهَجِّر آخر إنسان سوري، وهم الصهاينة الذين يشكلون الوضع القائم في سوريا أعظم نصر لهم لم يرموا فيه برصاصة وحجر.

ومن المفترض أن يُلْجِئ الثوار السوريين إلى هذا الباب الوحيد للحل ما علمتهم إياه التجارب من أن الانتصارات القصيرة هنا وهناك وفي جبهة (أ) وجبهة (ب) لا تحقق نصراً حاسماً، بل الغالب أنها فُوَّهَة لحمٍ منكرة، والتجربة الأخيرة في حلب خير شاهد.

كانت مأساة البوسنة في العصر الثانية من هذا القرن الهجري أكثر سوء من مأساة سوريا، فقد كانت بين شعب البوسنة الأعزل، وبين المتطرفين من الشعدين الصربي والكرواتي يدعمهم حكومتا صربيا وكرواتيا وجيشهما، لكن المأساة انتهت حينما وجدت رغبة دولية لإنهائها، بينما في سوريا اليوم توجد الرغبة الدولية لإنهاء المأساة ومع ذلك تتفاقم الأمور كل يوم، فما هو الفرق يا ترى؟

الفرق في تقديري هو أن البوسنيين كان لهم رأس، وهو الرئيس علي عزت بيكونفيتش الذي كان مطاعاً مسماً الكلمة في شعبه بالرغم من أنه لم يكن يملك دعماً مادياً أو جيشاً أو سلاحاً، وكان ما يملكه فقط بعد توفيق الله له هو اتحاد شعبه وراءه، وعدالة قضيته، وقد استطاع أن يقف بهذين الرصيدين في مفاوضات دايتن ووصل إلى حل تم به إنقاذ شعبه وتحرير بلاده، وقد لا يكون ما وصل إليه منتهي طموحة، لكنه بالتأكيد أفضل ما كان متاحاً.

فرق آخر، وهو أن المقاتلين العرب الذين شاركوا البوسنيين نصرتهم لقضيتهم لم يكن لهم مشروع آخر غير نصرة البوسنة وأهلها، فلم يكونوا يرون البوسنة مجرد محطة لخدمة مشروع آخر يختلف عما تريده حكومة علي عزت وشعبه، أما القادمون إلى سوريا من مختلف أنحاء العالم فسوريا بالنسبة لهم موقع قتالي ينصرفون من خلاله مشروع القاعدة أو مشروع داعش حسب وهمهم، وقد لا يعلمون أنهم على الحقيقة ينصرفون مشروع من يحرك القاعدة وداعشاً، ولو أن هؤلاء كانوا موجودين في البوسنة حين التوقيع على اتفاقية دايتن لحكموا بـ بـ كـ فـ بـ يـ كـ فـ كـ فـ حـ كـ مـ هـ وـ جـ هـ وـ جـ هـ نـ حـ وـ حـ هـ، ولرأيت حال البوسنيين كما نراه اليوم من حال الأفغان فقر وبؤس وخوف واحتلال متعدد الجنسيات في الداخل وتشريد وتمزق في الخارج، وهذه الحال هي التي تنتظر السوريين كما يبدو من الواقع المشاهد، أي أن وضعهم لن يتقدم كثيراً عما كان عليه في أوج حكم آل الأسد، إلا إن استطاع المشاركون في المشهد العسكري والسياسي منهم التسامي فوق الرؤى الفاقدة الحالمة وتوحدوا عسكرياً وسياسياً، والله تعالى أحكم وأرحم ونسأله أن يأتي بما هو خير.

موقع الكاتب على الانترنت

المصادر: